المجتمع الموصلي بعد داعش .... الأفكار والتوجهات

مركز نون

توطئة :

تعد مدينة الموصل – مركز محافظة نينوى شمال العراق – أنموذجاً رائعاً للتعايش السلمي البناء قبل أحداث العاشر من حزيران عام 2014 م ، فعلى الرغم من المحاولات اليائسة للجماعات المتطرفة التي نشطت بعد احتلال العراق في نيسان 2003 م لزعزعة النسيج الاجتماعي في المحافظة عامة ومدينة الموصل خاصة ، بقي المجتمع الموصلي متماسكاً ، محافظاً على قيم المحبة والتعايش الآمن والسلم المجتمعي .

لكن بعد احتلال عصابات ما يسمى بـ (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام – داعش) وسياستهم التعسفية الظالمة التي تمثلت بالقتل والتهجير القسري وغيرها تجاه مكونات نينوى بشكل عام ، وغير المسلمين من (مسيحيين ، وأيزيديين) بشكل خاص ، ظهرت على مسرح الأحداث دعوات وأفكار وتوجهات في التفكير والتصرفات تنذر بشر مستطير ، تهدد النسيج الاجتماعي في محافظة نينوى ومدينة الموصل .

وهذه الدراسة الموجزة ستعالج قضية (المجتمع الموصلي بعد داعش ... الأفكار والتوجهات) ، وسأحاول تلخيصها بالمحاور الآتية :

أولاً : طبيعة المجتمع الموصلي : مكوناته وطبيعته :

إنَّ من نافلة القول بأن المجتمع الموصلي يتكون من بيوت وعوائل متعارفة فيما بينها تنحدر من أصول عريقة وقوميات مختلفة من عرب وكورد وتركمان وغير ذلك ، وهذه البيوتات الموصلية العريقة تجتهد في الحفاظ على هويتها الموصلية التي نشأت عليها وورثتها عن آبائها وأجدادها ، تلك الهوية التي تمثلت بحبهم للسلام والوئام ، وبعدهم عن الاختلاف والشجار وإثارة المشكلات والعوائق.

فالبيوت العربية في الموصل تنحدر من أصول قبلية وعشائرية قديمة ، ولا يكاد الباحث يحار في إيجاد بيوت تنحدر من تلك القبائل ، والأمر نفسه في البيوت المنحدرة من قبائل كوردية أو تركية أو غيرها.

ويمكنني القول إن التعايش السلمي واحترام خصوصيات الآخرين القومية أو المذهبية أو الدينية أو العرقية كان من أبرز المظاهر التي تميز المجتمع الموصلي ، إذ لم يسجل تاريخ العصور المتأخرة فتنة طائفية أو قومية أو مذهبية أو قومية حدثت في الموصل بسبب عدم احترام المسلمين لغيرهم ، أو تجاوز العرب على غيرهم ، أو غير ذلك . بل كان التعاون أيام المحن والشدائد من أبرز خصائص المجتمع الموصلي ومميزاته ، ولعلَّ التكاتف والتعاون بين أهل الموصل أيام حصار نادر شاه للموصل خير دليل على ذلك . إذ نفذت المؤن ، وضاقت أحوال الناس كثيراً ، وبلغ الضيق والجهد بهم مبلغاً عظيماً لم يبلغوه من قبل ، لكن الأهالي استطاعوا من كسر هذا الحصار بفضل تعاونهم وتناصرهم فيما بينهم .

وعرف أيضاً عن المجتمع الموصلي – داخل مدينة الموصل – العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين ، سواء على مستوى علماء الموصل ورجال الكنائس أو على المستوى الفردي ومستوى العائلات والأسر ، فكانت مساعدات الفقراء والمساكين والمحتاجين من أبناء المدينة تجمع من الميسورين في الكنائس والأديرة كما تجمع في المساجد والجوامع . ومثلها حملات التبرع بالدم لضحايا التفجيرات الإرهابية التي تضرب المدينة بين الحين والآخر بسبب انفلات الوضع الأمني بعد الاحتلال الأمريكي عام 2003 م . وهذه الحقائق لا تحتاج إلى براهين وأدلة لأن المجتمع الموصلي عاشها واقعاً حياً ملموساً ، وليس كلاماً إنشائياً فارغاً .

وشهدت مدينة الموصل بعد احتلال داعش صفحة جديدة من صفحات التعايش السلمي والتعاون المجتمعي عندما أقدم الكثير من المسلمين إلى حماية أرواح وأعراض وممتلكات جيرانهم المسيحيين من السلب والنهب والمصادرة الذي أقدمت عليه عصابات داعش التكفيرية الضالة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وفي المهجر – أي أماكن نزوح الموصليين في أربيل والسليمانية ودهوك وبغداد وتركيا وغيرها – كان أهالي الموصل يجلسون معاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وقومياتهم يبثون همومهم بينهم ، وسيذكرون أيامهم الماضية في الموصل ، وينتظرون تحرير مدينتهم والعودة إليها بدماء القلب قبل دموع العين .

فهذه إذن طبيعة المجتمع الموصلي ، وهي طبيعة قائمة على التسامح والسلام ، والاتفاق والوئام ، ولم تعرف العدوانية أو الغوغائية أو التطرف في مرحلة من مراحل تاريخها الطويل .

ثانيا : المجتمع الموصلي أثناء احتلال داعش :

احتل تنظيم داعش الموصل يوم 10 حزيران 2014 م ، بعد انسحاب مهين للجيش العراقي والقوات الأمنية التي كانت مكلفة بحماية الموصل والدفاع عنها ، في سابقة عسكرية خطيرة يندى لها جبين العسكرية عبر تاريخها الطويل .

فمن غير المنطقي – وبالمقاييس كافة – أن تنهار أربع فرق عسكرية مجهزة بمختلف أنواع السلاح ، ومدعومة بالدروع والطائرات والإمكانيات العسكرية الهائلة أمام مجموعة قليلة من المرتزقة وشذاذ الآفاق لا يمتلكون عشر القدرات التي تمتلكها القوات العراقية ممثلة بالجيش والشرطة المحلية والشرطة الاتحادية وغيرها ! الأمر الذي يجعل المراقب لوضع الموصل يؤمن بنظرية المؤامرة إيماناً قطعياً جازماً ، ويطرح أسئلة وعلامات استفهام كثيرة ، منها : لماذا لم يقاتل الجيش ؟ ولماذا انسحب

وترك سلاحه ومعداته وتجهيزاته لعصابات داعش ؟ ولمصلحة من حدث هذا ؟ ومن المسؤول عنه ؟ وما الذي يراد للموصل وأهلها ؟ وما القوى الخفية التي تقف وراء هذه المؤامرة ؟

لذا أقول : إن تسليم الموصل لعصابات داعش كان مقصوداً ومتعمداً ، والهدف منه القضاء على أنموذج عراقي أصيل للحضارة والبناء والتعايش السلمي ليس في العراق أو منطقة الشرق الأوسط فقط ، بل في العالم كله .

فمنذ الأيام الأولى لدخول عصابات داعش مدينة الموصل عملت جاهدة على تفكيك الروابط الاجتماعية بين مكونات المجتمع الموصلي ، فاستهدفت المسيحيين وصادرت أموالهم وممتلكاتهم ، وخيرتهم بين الإسلام – كما يزعمون – وبين الجزية أو القتل ، متناسين بذلك تعاليم الإسلام وأحكام الفقهاء في هذه المسائل الشرعية . فهجر المسيحيون الموصل ، ومن بقي منهم بقي في حياة الذل والهوان ، وقتلت العصابات الداعشية الأيزيديين ، ونهبت أموالهم وسبت نساءهم ، والمسلمون لم ينجوا أيضاً من هذه الفتنة ، إذ بادر التنظيم الإرهابي إلى إعدام الكفاءات العلمية والثقافية والاجتماعية ، فقتل المئات منهم ، وشرد الآلاف وحبسهم في ظلمات سجونه ، حتى لا يرفعوا رؤسهم بقول كلمة الحق ، أو يقودوا ثورة شعبية عارمة ضد التنظيم وسياسته التعسفية الظالمة .

وبين ليلة وضحاها تحولت الموصل إلى سجن كبير ، أو مدينة جامدة هامدة لا حياة فيها ، خاصة بعد أن عزلها التنظيم عن العالم الخارجي بقطع وسائل الاتصالات كافة . فضاعت تلك القيم التي عاش عليها الموصلي من المحبة والتسامح والمودة والتعاون والتعايش السلمي ، وحلت محلها أوامر صارمة أصدرها تنظيم داعش تعمل على نشر التعصب والبغضاء والتطرف والتقاطع والتدابر بين فئات المجتمع ، فالكل مشكوك في أمره ، والجميع موضع ريبة واتهام من التنظيم وعناصره ، وجواسيس داعش منتشرون في المساجد والأسواق والشوارع والأزقة الضيقة في حواري الموصل القديمة ، بل عند أبواب ونوافذ بيوت الناس الأبرياء يتسمعون لكلامهم ويراقبون حركاتهم وسكناتهم ! الأمر الذي أدى إلى ضياع العقل الجمعي في التفكير عند المواطن الموصلي ، واللجوء إلى التفكير الفردي أملاً بالنجاة والخلاص من بطش عصابات التنظيم .

ثالثاً : المجتمع الموصلي بعد داعش .... الأفكار والتوجهات :

بعد الظلم الذي عاشه المجتمع الموصلي في ظل احتلال داعش ، ظهرت أفكار وتوجهات كثيرة متنوعة بتنوع الأطياف المجتمعية في المدينة . فالمسيحيون فقدوا الثقة بحياة آمنة مطمئنة في الموصل بعد أن صادر تنظيم داعش حياتهم وأرواحهم وممتلكاتهم ، وصاروا يبحثون عن محافظة خاصة بهم ، تجمعهم ويعيشون فيها تحت حماية دولية أممية .

والأيزيدون الذين عانوا من القتل والأسر والسبي لم يعودوا راغبين في العودة إلى حضن محافظتهم ومدينتهم إلا بحكم ذاتي خاص بهم يضمن لهم حقوقهم وبحماية دولية أيضاً . ومثلهم الشبك والكاكائيين الذين صاروا يفكرون جدياً بالانضمام إلى إقليم كوردستان ، ويشاركهم في الرأي كورد الموصل ونينوى .

أما العرب المسلمون من أهل السنة في الموصل فقد أضاعوا ثقتهم بحكومتهم المحلية – ممثلة بمحافظة نينوى ومجلس محافظتها – وبحكومتهم الاتحادية في بغداد ، لأن حكومة المركز – بنظرهم - هي التي تهاونت بل تواطئت مع تنظيم داعش في احتلال مدينتهم ، وتسببت في تدمير مقدراتهم وواقعهم ومستقبلهم . لذا فإنَّ الأغلبية منهم تطمح إلى إدارة ذاتية لمدينتهم ، من أجل إعادة إعمارها ورسم مستقبل آمن لها .

ويمكن تلخيص أفكار وتوجهات المجتمع الموصلي بعد داعش بالنقاط الآتية :

(1) العمل على إدارة المحافظة من قبل أبنائها حصراً ، على أن تكون إدارة مستقلة بقراراتها بعيداً عن تدخلات حكومة المركز ، ووفق الدستور العراقي .

(2) تشكيل قوة عسكرية من أبناء المحافظة تأخذ على عاتقها حماية المحافظة والدفاع عنها ، على أن تكون هذه القوة جزءاً من المنظومة العسكرية العراقية .

(3) العمل على إعادة إعمار المحافظة بالتنسيق مع الشركات المحلية والعربية والدولية المعروفة ، ووفق دراسات اقتصادية جادة وهادفة .

(4) استثمار الموارد البشرية والاقتصادية للمحافظة استثماراً يخدم توجهات أبنائها ورؤاهم الاقتصادية والاجتماعية .

(5) العمل الجاد والدؤوب على تدويل قضية الموصل ، وعرضها في المحافل الدولية .

(6) الخلاص من الشخصيات السياسية الفاسدة التي لم تحسن إدارة المحافظة ، وأهملت الملف الإنساني المتمثل بتلبية احتياجات النازحين وتأمين ملاذات آمنة لهم ، وعدم السماح للفساد والفاسدين باستلام مقدرات الأمور في المحافظة مرة أخرى .

(7) العمل على إصلاح التربية والتعليم ومؤسساته في المحافظة ، والسعي إلى تعويض ما يمكن تعويضه من حياة الناس وأموالهم وممتلكاتهم .

(8) العمل على إزالة آثار عصابات داعش ومخلفاتها في المجالات كافة .

(9) العمل على نشر الحس الأمني في المجتمع ، وعدم السماح لقوى الشر والظلام المتمثلة بالفكر التكفيري وغيره بالعودة مرة أخرى .

(10) العمل على عدم دخول الحشد الشعبي إلى داخل مدينة الموصل أو استقرار الأحزاب السياسية الموالية لإيران وأذرعها العسكرية داخل المدينة ، لأن بقاء هذه الأذرع العسكرية الموالية لإيران سيسبب مشاكل كثيرة جداً للموصل وأهلها ، خاصة بعد التصرفات غير المسؤولة التي صدرت من عناصر الحشد الشعبي في ديالى وصلاح الدين والأنبار وجنوب الموصل تمثلت بأعمال السرقة والسلب والنهب والقتل والاعتقالات العشوائية وغيرها .

الوسائل المقترحة لتحقيق هذه الأفكار والتوجهات :

في نهاية هذه الدراسة الموجزة عن المجتمع الموصلي بعد داعش ، يقترح الباحث المقترحات الآتية :

(1) تشكيل مجلس أعيان الموصل من أبرز الشخصيات المجتمعية في الموصل يتولى الإشراف على الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية في الموصل ، على أن يكون له اتصال مباشر مع القيادات الأمنية لتفعيل الحفاظ على أمن المدينة .

(2) عرض قضية الموصل في المحافل العربية والإسلامية والدولية لغرض تأمين إعمار المدينة وإعادة تأهيلها .

(3) الالتفات حول القيادات السياسية المخلصة والفاعلة والمؤثرة من أبناء المدينة ، وترك المواقف السلبية المتمثلة بالتنصل من المسؤولية واللامبالاة .

(4) بناء علاقات ودية جيدة مع إقليم كوردستان والمحيط الجغرافي لنينوى من أجل تأمين المصالح المتبادلة .

(5) دعم مبادرات الإصلاح المجتمعي الجادة والصادقة وتفعيلها .

(6) الانفتاح على الآخرين والتعامل معهم على أساس المصالح المتبادلة .

(7) تفعيل دور منظمات المجتمع المدني والمؤسسات الاجتماعية والبحثية لتقديم دراسات واضحة عن إزالة آثار داعش ، وبالمستويات كافة .

(8) التأكيد على تفعيل دور الزعامات الدينية والمذهبية والعشائرية والسياسية في إنشاء وثيقة عقد اجتماعي جديد بعد داعش يعتمد مبدأ العدالة وحل المشاكل بالطرق القانونية السلمية ، بعيداً عن روح الثأر والتعصب والفوضى .

(9) التواصل مع المراكز البحثية ، ومراكز الدراسات الاستراتيجية لتقديم الدراسات والخطط العلمية العملية التي تساهم في إيجاد الحلول الناجعة للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المحافظة .

(10) وأخيراً : إيجاد سبل ووسائل للضغط على الحكومة المركزية من أجل التعامل مع محافظة نينوى ومدينة الموصل تعاملاً عملياً واقعياً عادلاً يناسب مكانة المحافظة وخصوصياتها الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وعدم تهميشها أو إقصائها ، والاستفادة من أخطاء الحكومات السابقة التي جاءت بعد 2003م .

مصادر الدراسة :

(1) دراسات في المجتمع العراقي ، علي الوردي ، بغداد ، 2006 م .

(3) مجلة المورد العراقية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العدد السابع ، تموز ، 1990 م .

(3) موسوعة مدينة الموصل الحضارية ، مجموعة من الباحثين ، جامعة الموصل ، 1990 م .

(4) الموصل : ذاكرة وحضارة ، محمد حسين ربيع ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1989 م .

(5) الموصل في الدراسات التاريخية الحديثة ، مجموعة من الباحثين ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 2010 م .

(6) احتلال تنظيم داعش للموصل : الأبعاد والتحديات ، صابر حسين علي ، الشبكة العنكبوتية .